

٤ - الأحلام

للفيلسوف الفرنسي هنري برجسون

بقلم الأستاذ ألبير نادر

أين الفرق بين اليقظة والحلم؟

ما هو النوم؟ إلى لا أتساءل طبعاً ما هي الشروط الجسمية للنوم - هذا أمر يبت فيه الأطباء ولم يفصل فيه بمدى. أتساءل كيف يجب أن نتصور الحالة النفسية لرجل نائم لأن النفس تستمر في العمل أثناء النوم. فالنفس - كما سبق أن ذكرنا - نائمة كانت أو يقظة، تربط الإحساسات بالذكريات التي تدعوها - وآلية العمليتين تبدو واحدة في الحالتين: حالة اليقظة وحالة النوم - ولكن يوجد الإدراك الطبيعي من جهة والحلم من جهة أخرى - فآلية العملية لا تقوم بنفس العمل في الحالتين، فأين الفرق إذاً؟ ما هي الميزة النفسية للنوم؟

دعونا، لا نتق كثيراً بالنظريات. يقولون إن النوم عبارة عن انفراد عن العالم الخارجي، ولكننا بيننا أن النوم لا يمنع الحواس تماماً من التأثيرات الخارجية، ولكنه يستمد منها مادة الكثير من الأحلام. ثم بيننا أن وظائف العقل السامية أثناء النوم تستريح ويتسبب عن ذلك توقف في التعقل. لا أظن أن الأمر كذلك. إننا أثناء الحلم نصبح غير مكترئين بقوانين المنطق؛ ولكننا لا نكون عاجزين عن كل منطق، وأكثر من ذلك، وهنا أخشى أن أدهشكم، أن ذنب النائم هو أنه يعقل أكثر من اللازم. والنائم يتجنب المحال إذا كان مجرد مشاهد لاستعراض رؤياه - ولكنه عندما يريد، بقدر استطاع أن يمر عنها، يكون منطقاً المخصص لربط الصور البهيمية بعضها ببعض غير قادر إلا على تقليد منطق العقل، ويتلمس حينئذ المحال. نعم إن وظائف العقل السامية تنحل أثناء النوم؛ وإن ملكة التعقل تلهو أحياناً بتقليد التعقل الطبيعي ولو لم تشجعها على ذلك الصور المتماثلة. ويمكننا أن نعمم هذا القول فيما يخص الملكات الأخرى. إننا لا نعمل الحلم بأنعدام التعقل ولا بإغلاق الحواس ولنترك جانب النظريات وتتصل مباشرة بالواقع يجب أن نقوم باختبار حاسم في أنفسنا. عند ما نخرج

من الحلم سنراقب انتقالنا من حالة النوم إلى حالة اليقظة، إذ أننا لا نستطيع أن نحمل حالتنا أثناء الحلم نفسه. ولنتبع هذا الانتقال بقدر استطاع - لنوجه التفاتنا إلى حالة عدم انتباه عندنا، ولناخذ على غرة الحالة النفسية للإنسان لم يزل نائماً، ولكنه في طريق اليقظة. نعم إن هذا العمل عسير ولكنه ليس بالمستحيل لمن مرن نفسه عليه بكل صبر. اسمحوا لي أن أقص عليكم حلاً من أحلامي وأقول لكم ماذا ظننت عندما استيقظت. ظننت أنني على منبر أخطب حشداً من الناس، فصعدت منصة مبهمة من مؤخرة المستمعين، ثم أخذت في الوضوح؛ وأصبحت رعداً، ثم نباحاً، ثم نحيباً فظيماً - ثم دوى من كل جانب وعلى وتيرة منظمة صراخ يقول: إلى الباب إلى الباب. استيقظت فجأة عندئذ - وكان كلب ينبع في الحديقة المجاورة، وكلما كان يعوى كان الصراخ القائل: إلى الباب يخرج بكل عوية من عواء السكك - هذه هي اللحظة التي يجب انتهازها. فشخصية اليقظة التي ظهرت الآن تتحول نحو شخصية الحلم التي لم تزل موجودة وتقول لها: «أقبض عليك متلبسة بجرمك؛ تظهرين لي حشداً يصرخ وليس هناك إلا كلب يعوى لا تحاول الهروب. إني قابضة عليك. ستدائين لي برك وأمرك - ستدعيني أرى ماذا كنت تصنعين» وشخصية الحلم تجيب قائلة: أنظري إني لم أكن أفضل شيئاً؛ ولأجل ذلك كانت شخصيتان مختلفتين، فتقول لها شخصية اليقظة: أنتظنين أنك لا تفعلين شيئاً وأنا أسمع كلباً ينبع وأفهم أن من ينبع هو كلب؟ إنه لضلال مبين... أنت تبدئين مجهوداً كبيراً بدون أن تشمرى بذلك - يجب أن تجمعي كل ذاكرتك وكل تجاربك التراكمية وتقودها بواسطة حصر مفاجيء حتى لا تقدم للصوت الذي تسمعه سوى جزء من هذه الذاكرة أعني الذكرى التي تكون أكثر شبيهاً بهذا الإحساس والتي يمكنها أن تعبر عنه أحسن تعبير: حينئذ تغفل الذكرى الإحساس. ثم يجب أن تكون هناك الموافقة التامة حيث لا يترك أي فرق بين الذكرى والإحساس (وإلا فتكونين في حالة حلم).

لا يمكنك أن تضمن هذه المطابقة وهذه الموافقة التامة إلا بواسطة الانتباه أو بالأحرى بواسطة مجهود مشترك من قبل الإحساس والذاكرة. هكذا يفعل الخياط عندما يجرب لك رداء تصمّمه فقط: فهو يضع الدبابيس ويشد بقدر الإمكان التماسك على

أخرى كثيرة إذا تركنا لها المجال لذلك . لكن لقد حان الوقت للوصول إلى نتيجة . ما هو الفرق الجوهرى بين الحلم واليقظة ؟ سنلخص ماسبق قائلين إن القوى نفسها تعمل سواء كنا في حالة اليقظة أو في حالة الحلم . فقط في الحالة الأولى تكون هذه القوى منحصرة وفي الحالة الثانية تكون منطلقة

الحلم هو الحياة العقلية بأكملها ينقصها جهود المحصر . فلا نزال ندرك ولا نزال نتذكر ولا نزال ننقل . والحالم يمكنه أن يدرك ويتذكر ويعقل كثيراً . والإكثار في هذه العمليات لا يعنى أن النفس تبدل مجهوداً لأن ما يتطلب المجهود إنما هو الدقة والثبات في الانسجام . فنحن لا نعمل شيئاً ولا نبذل أى مجهود ليرتبط نباح الكلب صدفة بذكرى حشد متفجر ، ولكن يجب بذل مجهود فعلى حتى يتصل هذا النباح بذكرى نباح الكلب وحتى يمكننا التعبير عنه أنه فعلاً نباح . ولكن لم تبق عند الحالم أى قوة لبذل هذا المجهود ، فبذلك وبذلك فقط يتميز الحالم عن اليقظان

هذا هو الفرق ونحن نبرهنه بطرق مختلفة . وإني سأجنب التفاصيل ؛ فقط ألفت نظركم إلى نقطتين أو ثلاث وهي : عدم استقرار الحلم ، والسرعة التي يمكنه أن يسرد بها ، والأفضلية التي يعطيها للذكريات النافهة

من السهل التمييز عن عدم الاستقرار ، إذ أن الحلم من خاصيته ألا يجعل الإحساس ينطوى تماماً على الذكرى ، بل يترك في ذلك مجالاً للعب ، فعليه يمكن للذكريات مختلفة تمام الاختلاف أن تطبّق على الحلم . إليك مثلاً بقعة خضراء منتشرة عليها نقط بيضاء ، وذلك في حقل البصر - فيمكنها أن تحرق ذكرى جزء مزدهر في حديقة أو ذكرى مائدة لعب الكرات مع كراتها ، أو أشياء أخرى كثيرة . وجميع الذكريات تريد أن تعود إلى الحياة في هذا الإحساس وكلها تعدو وراه . ففى بعض الأحيان تبلغه الواحدة تلو الأخرى ، والجزء المزدهر في الحديقة يصبح مائدة لعب الكرات ، ونشاهد حينئذ تطورات مذهشة . وفى بعض الأحيان تبغى جميعها فيصير الجزء المزدهر مائدة لعب الكرات ، ويحاول الحالم أن يرفع عنه هذا التناقض بواسطة تفكير يزيد في دهشته

(البقية في العدد القادم)

أبيير نادر

الجسم حتى ينسجم عليه تماماً . وحياتك في حالة اليقظة هي حياة عمل وإن بظننت أنك لا تعملين شيئاً . وذلك لأنه يجب عليك في كل لحظة أن تختارى وأن تعزلى . إنك تختارين بين إحساساتك لأنك تبعدين عن الوجدان آلاف الإحساسات الشخصية التي تعود إلى الظهور حينما تنامين . إنك تختارين بكل دقة وتأن من بين ذكرياتك بما أنك تبعدين كل ذكرى لا تنسجم وحاتك الحاضرة . هذا الاختيار الذى تقومين به بلا انقطاع ، وهذه المطابقة (بين الذكريات والحالة الحاضرة) المستمرة والدائمة التمدد هما الشرط الأساسى لما يسمونه الصواب . ولكن المطابقة والاختيار يجعلانك في حالة إجهاد غير منقطع أنت لا تشعرين به في الحال كما أنك لا تشعرين بالضغط الجوى ولكنك تتعبين إذا ما طال . والصواب متمب جداً

« لقد قلت لك توأ : إني أتميز عنك لأنى لا أفضل شيئاً . والمجهود الذى تبذلينه بدون انقطاع أنا أمتنع فقط عن بذله . أنت تتمسكين بالحياة وأنا أنفصل عنها . لم أعد أكثر بشىء ولا أهتم بشىء . النوم عدم اهتمام ونحو نيام بقدر ما نكون غير مباينين . الأم الناعمة بجانب طفلها يمكنها ألا تسمع قصف الرعد ، بينما تهدة واحدة من تهيدات طفلها توقظها . فهل كانت قافلة (ناعمة) حقاً بالنسبة لطفلها ؟ إننا لا ننقل عما يزال يهمنى »
« سأليني عما أفضل عند ما أحلم ؟ سأقول لك ماذا تفعلين أنت أثناء اليقظة . ناخذيني أنا شخصية الأحلام ، أنا مجموعة ماضيك وتعوديني ، مضيقه على الخناق ، حتى تحصرينى داخل الدائرة الضيقة التي تحطينها حول عملاك الحالى ، هذه هي حالة اليقظة : الحياة النفسية الطبيعية ، الجهاد ، الإرادة . أما الحلم فهل أنت بحاجة لأن أعبرك عنه ؟ إنها الحالة التي تلاقين فيها نفسك في حالتها الطبيعية عند ما تتركينها على غاربها ، عند ما تهملين خصرها في نقطة واحدة ، عند ما تكف الإرادة عن العمل . وإذا ألححت أو أصررت في طلب شرح أى شىء فسلى كيف تعمل إرادتك في أى وقت من أوقات اليقظة حتى يمكنها أن تحصر كل تحمله فيك في نقطة واحدة تهملك وذلك بدون أن تشعرى وأسألى بخاء حينئذ حالتك النفسية وقت اليقظة ، ووظيفتها الأساسية أن تهيئك لأن اليقظة والإرادة شىء واحد »
هذا ما تقوله شخصية الأحلام ، وإنها لتقص علينا أشياء